كتاب ذم الدنيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد عبده ورسوله، المرسل إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا، وسراجًا منيرًا، وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرًا. وعلى الظالمين نصيرًا، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن الدنيا عدوة لله، وعدوة لأولياء الله، وعدوة لأعداء الله.

أما عداوتها لله،فإنها قطعت الطريق على عباد الله. ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها وأما عدواتها لأولياء الله عَزَّوَجَلَّ، فإنها تزينت لهم بزينتها، وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها.

وأما عداوتها لأعداء الله. فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها، فاقتنصتهم بشبكتها، حتى وثقوابها، وعولوا عليها، فخزلتهم أحوج ما كانوا إليها، فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون، بل يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:٨٦].

بيان ذم الدنيا:

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها، ودعوتهم إلى الآخرة. فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها.

فقد رُوي أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على شاة ميتة، فقال: «**أترون هذه الشاة هينة على أهلها؟**» قالوا: من هوانها ألقوها، قال: «**والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله**

من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء» [رواه مسلم]. وقال ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» [رواه مسلم]، وقال رسول الله ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني] وقال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني]، وقال ﷺ: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**» [مرسل عن الحسن].

وقال زيد بن أرقم: كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فدعا بشراب، فأتى بماء وعسل. فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه، وسكتوا وما سكت. ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته. قال: ثم مسح عينيه، فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا ولم أرمعه أحدًا. فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «**هذه الدنيا مثلت لي فقلت لها إليك عني ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلت مني لم يفلت مني من بعدك**» [رواه البزار وضعفه الحافظ العراقي].

وقال ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون. إن بني إسرائيل لما بُسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب**» [متفقٌ عليه على الشطر الأول إلى قوله: «**فناظر كيف تعملون**» والشطر الثاني مرسل].

وقال عيسى عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا ربًا فتتخذكم عبيدًا. اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه، فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة وقال عليه الصلاة والسلام: يا معشر الحواريين، إني قد كببتُ لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي. فإنّ من خبث الدنيا أن عُصي الله فيها وإن من خبث الدنيا أن الآخرة

لا تُـدرك إلا بتركهـا، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شـهوة سـاعة أورثت أهلها حزنًا طويلًا. وقال أيضًـا: بطحت لكم الدنيا، وجلستم على ظهرها، فلا ينازعكم فيها الملوك والنساء. فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا، فإنهـم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم. وأما النسـاء فاتقوهن بالصوم والصلاة. وقال أيضًا: الدنيا طالبة ومطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا، حتى يستكمل فيها رزقه. وطالب الدنيا تطلبه الآخرة، حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه.

وقال موسى بن يسار: قال النبي ﷺ: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخلق خلقًا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها**» [مرسـل]، ورُوي أن سـليمان بن داود عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، مـر في موكبـه والطير تظله، والجـن والإنس عن يمينه وشـماله، قال: فمـر بعابد من بني إسرائيـل، فقـال: والله يـا ابـن داود لقد آتـاك الله ملكًا عظيمًا، قال فسـمع ذلك سـليمان فقال: لتسـبيحه في صحيفة مؤمن خير مما أُعطي ابن داود فإن ما أُعطي ابن داود يذهب، والتسبيحة تبقى. وقال ﷺ: «**ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبسـت فأبليت أو تصدقت فأبقيت**» [رواه مسـلم]، وقال ﷺ: «**الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعـادي مـن لا علم له وعليها يحسـد من لا فقه له ولها يسـعى من لا يقين لـه**» [رواه أحمد وقال العراقي: سنده جيد].

ويـروى أن الله عَزَّوَجَلَّ، لمـا أهبـط آدم إلى الأرض، قال له ابنِ للخـراب، ولِدْ للفناء، وقـال داود بـن هلال: مكتوب في صحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذيـن تصنعت وتزينت لهم، إني قذفت في قلوبهم بغضـك والصدود عنك، وما خلقت خلقًـا أهون عليّ منك، كل شـأنك صغـير وإلى الفناء يصير، قضيـتُ عليك يوم خلقتك أن لا تدومـي لأحـد، ولا يدوم لـك أحد، وإن بخل بك صاحبك وشـح عليك. طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاسـتقامة.

طوبى لهم، ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إليّ من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم، والملائكة حافون بهم، حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي، وروي في أخبار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه لما أكل من الشجرة، تحركت معدته لخروج السفل، ولم يكن ذلك مجعولًا في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه الشجرة. فلذلك نُهي عن أكلها. قال فجعل يدور في الجنة، فأمر الله تعالى ملكًا يخاطبه، فقال له: قل له أي شيء تريد؟ قال آدم: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى فقيل للملك: قل له في أي مكان تريد أن تضعه؟ على الفرش؟ أم على السرر؟ أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى ههنا مكانًا يصلح لذلك؟ اهبط إلى الدنيا.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض خطبه: «**المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذي نفسي بيده ما بعده الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار**» [فيه إرسال وانقطاع ولكن معناه حسن].

وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد. ورُوي أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا أطول الأنبياء عمرًا، كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدارٍ لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. وقيل لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لو اتخذت بيتًا يكنك، قال: يكفينا خلقان من كان قبلنا.

وقال عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ويل لصاحب الدنيا، كيف يموت ويتركها وما فيها، وتغره ويأمنها، ويثق بها وتخذله. وويل للمغترين، كيف أرتهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون. وويل لمن الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غدًا بذنبه. وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا موسى، مالك ولدار الظالمين؛ إنها

ليست لك بدار، أخرج منها همك، وفارقها بعقلك، فبئست الدارهي، إلا لعامل يعمل فيها، فنعمت الدارهي. يا موسى، إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم.

وروي أن رسول الله ﷺ، بعث أبا عبيدة بن الجراح، فجاءه مالٌ من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء؟**» قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**» [متفقٌ عليه]، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض**» فقيل ما بركات الأرض؟ قال: «**زهرة الدنيا**» [متفقٌ عليه].

وقال عمار بن سعيد: مر عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق فقال: يا معشر الحواريين، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا. فقالوا: يا روح الله، وددنا أن لو علمنا خبرهم. فسأل الله تعالى، فأوحى إليه، إذا كان الليل فنادهم يجيبوك. فلما كان الليل، أشرف على نشز، ثم نادى يا أهل القرية، فأجابه مجيب لبيك يا روح الله. فقال: ما حالكم وما قصتكم؟ قال: بتنا في عافية، وأصبحنا في الهاوية. قال: وكيف ذاك؟ قال: بحبنا الدنيا، وطاعتنا أهل المعاصي. قال: وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها، وإذا أدبرت حزنّا وبكينا عليها. قال: فما بال أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار، بأيدي ملائكة غلاظ شداد. قال: فكيف أجبتني أنت من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلق على شفير جهنم، لا أدري أنجو منها أم أكبكب

فيها. فقال المسيح للحواريين: لأكل خبز الشعير بالملح الجريش، ولبس المسوح، والنوم على المزابل، كثير مع عافية الدنيا والآخرة.

وقال أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تُسبق. فجاء أعرابي بناقة له فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: «**إنه حق على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه**» [رواه البخاري]، وقال عيسى عليه السلام: من الذي يبني على موج البحر دارًا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا. وقيل لعيسى عليه السلام علمنا علمًا واحدًا يحبنا الله عليه. قال: ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى.

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة**» [رواه الترمذي وابن ماجه وقد مضى]. ثم قال أبو الدرداء: من قبل نفسه، لو تعلمون ما أعلم، لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها، ولا راجع إليها إلّا ما لابد لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة، وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لتدع هواها مخافةً مما في عاقبته. مالكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله، ما فرَّق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحابتم. مالكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة، أَوَلا يملك أحدكم النصحية لمن يحبه فيعنيه على أمر آخرته. ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا، لآثرتم طلب الآخرة، لأنها أملك لأموركم. فإن قلتم حب العاجلة غالب، فإنا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف، في طلب أمر لعلكم لا تدركونه، فبئس القوم أنتم، وما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم. فإن كنتم في شك مما جاء به محمد ﷺ، فائتونا لنبين لكم، ولنريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم. والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم

فنعذركم. إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم، وتأخذون بالحزم في أموركم مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم، وتسمونها المصائب، وتقيمون فيها المآتم، وعامتكم قد تركوا كثيرًا من دينهم، ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم، ولا يتغير حالكم. إني لأرى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضًا بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره، مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله. فاصطحبتم على الغل، ونبتت مراعيكم على الدمن، وتصافيتم على رفض الأجل ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم، وألحقني بمن أحب رؤيته، ولو كان حيًا لم يصابركم. فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرًا، وبالله أستعين على نفسي وعليكم. وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا معشر الحواريين، ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا. وفي معناه قيل:

أرى رجالًا بأدنى الدين قد قنعوا ... وما أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا طالب الدنيا لتبر، تركك الدنيا أبر. ومر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ برجل وهو يبكي، ورجع وهو يبكي. فقال موسى: يا رب عبدك يبكي من مخافتك. فقال يا ابن عمران: لو سال دماغه مع دموع عينيه، ورفع يديه حتى يسقطا، لم أغفر له وهو يحب الدنيا [قلتُ: إن صح فهو محمول على بيع الدين من أجل الدنيا].

الآثار: قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من جُمع فيه ست خصال، لم يدع للجنة مطلبًا. ولا عن النار مهربًا. وأولها من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها. وقال الحسن: رحم الله أقوامًا كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدّوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا

خفافًا. وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره.

وقال لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه: يا بني، إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، لعلك تنجو وما أراك ناجيًا. وقال الفضيل: طالت فكرتي في هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨]. وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح في شيء من الدنيا، إلا وقد كان له أهل قبلك، وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا، إلا عشاء ليلة وغداء يوم فلا تهلك في أكلة، وصم عن الدنيا، وأفطر على الآخرة وإن رأس مال الدنيا الهوى، وربحها النار. وقيل لبعض الرهبان، كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان، ويجدد الآمال ويقرب المنية، ويبعد الأمنية قيل فما حال أهله؟ قال: من ظفر به تعب، ومن فاته نصب وفي ذلك قيل:

ومن يحمد الدنيا لعيشٍ يسره ... فسوف لعمري عن قليل يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيرًا همومًا

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها، فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة، أو منية قاضية. وقال بعضهم: من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحدًا ما يستحق لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص. وقال سفيان: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها، قدوضعت في غير أهلها. وقال أبو سليمان الداراني: من طلب الدنيا على المحبة لها، لم يعط منها شيئًا إلا أراد أكثر. ومن طلب الآخرة على المحبة لها، لم يعط منها شيئًا إلا أراد أكثر. وليس لهذا غاية. وقال رجل لأبي حازم، أشكو إليك حب الدنيا، وليست لي بدار. فقال: انظر ما آتاكه الله عَزَّوَجَلَّ منها، فلا تأخذه إلا من جلِّه، ولا تضعه إلا في حقه، ولا يضرك حب الدنيا. وإنما قال هذا، لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه، حتى يتبرم بالدنيا، ويطلب

الخروج منها. وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئًا، فيجيء في طلبه فيأخذك. وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفًا يبقى، على ذهب يفنى. فكيف وقد اخترنا خزفًا يفنى، على ذهب يبقى! وقال أبو حازم: إياكم والدنيا، فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة، إذا كان معظمًا للدنيا، فيقال: هذا عظَّم ما حقره الله. وقال ابن مسعود: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف، وماله عارية. فالضيف مرتحل، والعارية مردودة، وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها، فذكروا الدنيا، فأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

وقيل لإبراهيم بن أدهم كيف أنت؟ فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبي لعبد آثر الله ربه ... وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضًا في ذلك:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورًا وأنعما

كبانٍ بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقيل أيضًا في ذلك:

هب الدنيا تساق إليك عفوًا ... أليس مصير ذاك إلى انتقال

وما دنياك إلا مثل فيء ... أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه: يا بني، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا. ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعًا. وقال مطرف بن الشخير، لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم

ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. وقال بعضهم: الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئًا فليصبر على معاشرة الكلاب. وفي ذلك قيل:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها ... تنحَّ عن خطبتها تسلم

إن التي تخطب غدارة ... قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها. وفي ذلك قيل:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وقيل أيضًا:

يا راقد الليل مسرورًا بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارًا

أفنى القرون التي كانت منعمة ... كر الجديدين إقبالًا وإدبارًا

كم قد أبادت صروف الدهر من مَلِكٍ ... قد كان في الدهر نفاعًا وضرارًا

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ... يمسي ويصبح في دنياه سفارًا

هلا تركت من الدنيا معانقة ... حتى تعانق في الفردوس أبكارًا

إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما بعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أتت إبليس جنوده فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة. قال: يحبون الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان: وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث، أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه. والشر كله من هذا نبع. وقال رجل لعلي: يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا. قال: وما أوصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب. وفي

حرامها العقاب، ومتشابها العتاب. وقيل له ذلك مرة أخرى فقال: أطول أم أقصر؟ فقيل: قصر، فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا. وقال أبو سليمان الداراني: إذا كانت الآخرة في القلب، جاءت الدنيا تزاحمها. فإذا كانت الدنيا في القلب، لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة، وهذا تشديدٌ عظيم.

ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح، إذ قال: الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب، فأيهما أغلب كان الآخر تبعًا له. وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همّ الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج همّ الدنيا من قلبك. وهذا اقتباس مما قاله علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث قال: الدنيا والآخرة ضرتان، فبقدر ما ترضي إحداهما تسخط الأخرى. وقال الحسن: والله لقد أدركت أقوامًا كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا. وقال رجل للحسن: ما تقول في رجل آتاه الله مالًا، فهو يتصدق منه، ويصل منه، أيحسن له أن يتعيش فيه، يعني يتنعم. فقال: لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف، ويقدم ذلك ليوم فقره.

وقال الفضيل: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليّ حلالًا، لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذرها، كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه. وقيل لما قدم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشام: فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل، فسلم وسأله ثم أتى منزله فلم يرَ فيه إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو اتخذت متاعًا فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا يبلغنا المقيل. وقال سفيان: خذ من الدنيا لبدنك، وخذ من الآخرة لقلبك، وقال الحسن: والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا.

وقال وهب: قرأت في بعض الكتب، الدنيا غنيمة الأكياس، غفلة الجهال، لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا. وقال لقمان لابنه: يا بني، إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها، واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها، أقرب من دار تباعد عنها. وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه، وتنقص آخرته وهو به راض، فذلك المغبون، الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر.

وقال عمرو بن العاص على المنبر: والله ما رأيت قومًا قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم. والله ما مر برسول الله ﷺ ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له. وقال الحسن: بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان:٣٣]، من قال ذا؟ قاله من خلقها، ومن هو أعلم بها، إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب. وقال أيضًا: مسكين ابن آدم، رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عذاب، إن أخذه من حله حوسب به، وإن أخذه من حرام عذب به، ابن آدم يستقل ماله، ولا يستقل عمله. يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من مصيبته في دنياه.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: سلام عليك، أما بعد. فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات. فأجابه عمر: سلام عليك، كأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل. وقال الفضيل بن عياض: الدخول في الدنيا هين، ولكن الخروج منها شديد. وقال بعضهم: عجبًا لمن يعرف أن الموت حق، كيف يفرح! وعجبًا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك! وعجبًا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها، كيف يطمئن إليها! وعجبًا لمن يعلم أن القدر حق، كيف ينصب! وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران، عمره مائتا سنة. فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال: سنيات بلاء، وسنيات رخاء. يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد، ويهلك هالك. فلولا المولود لباد الخلق، ولولا الهالك ضاقت

الدنيا بمن فيها. فقال له: سل ما شئت. قال: عُمْرٌ مضى فترده، وأجل حضر فتدفعه. قال: لا أملك ذلك. قال: لا حاجة لي إليك.

وقال داود الطائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا ابن آدم، فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك. ثم سوفت بعملك، كأن منفعته لغيرك. وقال بشر: من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه. وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرك، إلا وقد ألصق الله إليه شيئًا يسوءك. وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث، أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه. وقيل لبعض العباد، قد نلت الغنى. فقال: إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا.

وقال أبو سليمان: لا يصبر عن شهوات الدنيا، إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرةوقال مالك بن دينار: اصطلحنا على حب الدنيا، فلا يأمر بعضنا بعضًا، ولا ينهى بعضنا بعضًا، ولا يدعنا الله على هذا، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا. وقال أبو حازم:يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة. وقال الحسن: أهينوا الدنيا، فوالله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها. وقال أيضًا: إذا أراد الله بعبد خيرًا، أعطاه من الدنيا عطية، ثم يمسك فإذا نفد أعاد عليه. وإذا هان عليه عبد، بسط له الدنيا بسطًا. وكان بعضهم يقول في دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك، أمسك الدنيا عني. وقال محمد ابن المنكدر: أرأيت لو أن رجلًا صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا ينام، وتصدق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارم الله، غير أنه يؤتى به يوم القيامة، فيقال إن هذا عظم في عينه ما صغره الله، وصغر في عينه ما عظمه الله، كيف ترى يكون حاله؟ فمن منا ليس هكذا؟ الدنيا عظيمة عنده، مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا.

وقال أبو حازم: اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعوانًا. وأما مؤمونة الدنيا، فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها، إلا وجدت فاجرًا قد سبقك إليه، وقال أبو هريرة: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض، كالشن البالي، تنادي

ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها، يا رب، يا رب، لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء. وقال عبد الله بن المبارك: حب الدنيا، والذنوب في القلب قد احتوشه؟ فمتى يصل الخير إليه؟ وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشيء من الدنيا، فقد أخطأ الحكمة. ومن جعل شهوته تحت قدميه، فرق الشيطان من ظله. ومن غلب علمه هواه فهو الغالب. وقيل لبشر، مات فلان. فقال: جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ضيع نفسه. فقيل له إنه كان يفعل ويفعل، وذكروا أبوابًا من البر، فقال: وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا؟

[قلت: إن الله لا يضيع مثقال ذرة من الخير طالما أخلص لله].

وقال بعضهم: الدنيا تبغض إلينا نفسها، ونحن نحبها. فكيف لو تحببت إلينا. وقيل لحكيم: الدنيا لمن هي؟ قال لمن تركها. فقيل الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها. وقال حكيم: الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها. والجنةدار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها. وقال الجنيد: كان الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا، وعظ أخًا له في الله وخوفه بالله، فقال: يا أخي، إن الدنيا دحض مزلة، ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر. شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف. الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله، وارض برزق الله لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك، فإن عيشك فيء زائل، وجدار مائل. أكثر من عملك، وأقصر من أملك.

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال دينار في اليقظة. فقال: كذبت، لأن الذي تحبه في الدنيا، كأنك تحبه في المنام. والذي لا تحبه في الآخرة، كأنك لا تحبه في اليقظة. وعن إسماعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة، فيقولون إليك عنا يا خنزيرة، فلو وجدوا لها إسمًا أقبح من هذا لسموها به. وقال كعب: لتُحبَّبن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها. وقال يحيى بن معاذ الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العقلاء ثلاثة، من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره أن يدخله، وأرضى

خالقه قبل أن يلقاه وقال أيضًا: الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لها يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها. وقال بكر بن عبد الله: من أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا، كان كمطفئ النار بالتبن، وقال بندار: إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد، فاعلم أنهم في سخرة الشيطان وقال أيضًا: من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها، يعني الحرص، حتى يصير رمادًا. ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها، فصار سبيكة ذهب ينتفع به. ومن أقبل على الله عَزَّوَجَلَّ، أحرقته نيران التوحيد، فصار جوهر لا حدَّ لقيمته.

وقال علي: إنما الدنيا ستة أشياء، مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومركوب، ومنكوح، ومشموم. فأشرف المطعومات العسل، وهو مذقة ذباب. وأشرف المشروبات الماء، ويستوي فيه البر والفاجر. وأشرف الملبوسات الحرير، وهو نسج دودة وأشرف المركوبات الفرس، وعليه يقتل الرجال. وأشرف المنكوحات المرأة، وهي مبال في مبال. وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها، ويراد أقبح شيء منها. وأشرف المشمومات المسك، وهو دم.

بيان المواعظ في ذم الدنيا وصفتها:

قال بعضهم: يا أيها الناس اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة، قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلية، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة. فكم من عاشق لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت. فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دار كثير بوائقها، وذمها خالقها، جديدها يبلى، وملكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقل، ودها يموت، وخيرها يفوت. فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم، قبل أن يقال فلان عليل، أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل؟ فتدعى لك الأطباء، ولا يرجى لك الشفاء. ثم يقال فلان أوصى، ولماله أحصى. ثم يقال قد ثقل

لسانه، فما يكلم إخوانه، ولا يعرف جيرانه. وعرق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك، وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان، ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطلق. ثم حل بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك فغسلوك، وكفنوك، فانقطع عوادك، واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهنا بأعمالك.

وقال بعضهم لبعض الملوك: إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بُسط له فيها، وأُعطي حاجته منها، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه، أو على ما جمعه فتفرقه، أو تأتي على سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه فالدنيا أحق بالذم، هي الآخذة ما تعطي. الراجعة فيما تهب. بينا هي تُضحك صاحبها، إذ أضحكت منه غيره. وبينا هي تبكي له، إذ أبكت عليه. وبينا هي تبسط كفها بالإعطاء، إذ بسطتها بالاسترداد. فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم، وتعفره بالتراب غدًا. سواء عليها ذهاب ما ذهب، وبقاء ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفًا، وترضى بكل من كل بدلًا. وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجنة إليه عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها. لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها. هي كالسم يأكله من لا يعرفه، وفيه حتفه. فكن فيها كالمداوي جراحه، يحتمي قليلًا، مخافة ما يكره طويلًا. ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول الداء. فاحذر هذه الدار الغدارة، الختالة الخداعة، التي قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وحلت بآمالها، وسوفت بخطابها، فأصبحت كالعروس المجلية، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة. وهي لأزواجها كلهم قالية. فلا الباقي بالماضي معتبر. ولا الآخر بالأول مزدجر، ولا العارف بالله عَزَّوَجَلَّ

حين أخبره عنها مدكر. فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى، ونسي المعاد، فشغل فيها لبه، حتى زلت به قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتأله، وحسرات الفوت بغصته. وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يروح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسَّر ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها. فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السار في أهلها غار، والنافع فيها غدار ضار. وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجُعل البقاء فيها إلى فناء. فسرورها مشوب بالأحزان، لا يرجع منها ما ولى وأدبر، ولا يدري ما هو آت، فينتظر. أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر، إن عقل ونظر. فهو من النعماء على خطر، ومن البلاء على حذر. فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرًا، ولم يضرب لها مثلًا، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عَزَّوَجَلَّ عنها زاجر، وفيها واعظ، فمالها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، إذ كره أن يخالف على الله أمره، أو يحب ما أبغضه خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه. فزواها عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، فيظن المغرور بها، المقتدر عليها، أنه أكرم بها، ونسي ما صنع الله عَزَّوَجَلَّ بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين شد الحجر على بطنه، ولقد جاءت الرواية عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه عَزَّوَجَلَّ، أنه قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا رأيت الغنى مقبلًا، فقل ذنب عجلت عقوبته. وإذا رأيت الفقر مقبلًا، فقل مرحبًا بشعار الصالحين. وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة، عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه كان يقول: إدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، وصلائي في الشتاء مشارق الشمس، وسراجي القمر، ودابتي رجلاي، وطعامي وفاكهتي ما أنبتت الأرض، أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء. وليس على الأرض أحد أغنى مني. وقال وهب بن منبه، لما بعث الله عَزَّوَجَلَّ. موسى وهرون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى فرعون، قال: لا يرو عنكما لباسه

الـذي ليس من الدنيا، فـإن ناصيته بيدي، ليس ينطق، ولا يطـرف، ولا يتنفس إلا بإذني ولا يعجبنكـما مـا تمتع به منها فإنها هي زهـرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين. فلو شـئت أن أزينكـما بزينـة من الدنيا، يعرف فرعـون حين يراها أن قدرته تعجز عـما أوتيتما، لفعلت. ولكني أرغب بكما عن ذلك، فأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأذودهم عـن نعيمهـا، كما يذود الراعي الشـفيق غنمه عـن مراتع الهلكـة، وإني لأجنبهم ملاذها، كما يجنب الراعي الشـفيق إبله عن منازل الغرة. وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليسـتكملوا نصيبهـم من كرامتي سـالمًا موفـرًا. وإنما يتزيـن لي أوليائي بالذل، والخـوف، والخضوع، والتقـوى تنبـت في قلوبهم، وتظهر على أجسـادهم، فهي ثيابهم التي يلبسـون، ودثارهم الـذي يظهـرون، وضميرهم الذي يستشـعرون، ونجاتهم التي بها يفـوزون، ورجاؤهم الـذي إيـاه يأملون، ومجدهم الذي بـه يفخرون وسـيماهم التي بها يعرفون، فـإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك. واعلم أنه من أخاف لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة.

وخطـب عـليّ يومًـا خطبة، فقـال فيها: اعلمـوا أنكم ميتـون، ومبعوثـون من بعد المـوت، وموقوفـون على أعمالكـم، ومجزيون بها. فـلا تغرنكم الحياة الدنيـا، فإنها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة. وكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال. لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نزالها. بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هـم منها في بلاء وغرور. أحوال مختلفة، وتارات منصرفة، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة. وترميهم بسهامها، وتقصيهم بحمامها، وكلٌّ حتفـه فيها مقدور، وحظه فيها موفور. واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيـا على سـبيل من قـد مضى ممن كان أطول منكم أعمارًا، وأشـد منكم بطشًـا، وأعمر ديـارًا، وأبعد آثارًا. فأصبحـت أصواتهم هامدة خامدة، وأجسـادها بالية، وديارهم على عروشـها خاوية، وآثارهم عافية، واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة، الصخـور والأحجـار المسـندة، في القبـور اللاطئة الملحـدة، فمحلها مقترب، وسـاكنها

مغترب بين أهل عمارة موحشين، وأهل محلة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان، على ما بينهم من قرب المكان والجوار، ودنو الدار. وكيف يكون بينهم تواصل، وقد طحنهم بكلكله البلا، وأكلتهم الجنادل والثرى، وأصبحوا بعد الحياة أمواتًا، وبعد نضارة العيش رفاتا، فجع بهم الأحباب، وسكنوا تحت التراب وفنوا فليس لهم إياب، هيهات هيهات: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، من البلا والوحدة في دار المثوى وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو عاينتم الأمور، وبعثرت القبور، وحصل ما في الصدور، وأوقفتم للتحصيل، بين يدي الملك الجليل. فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار، هنالك تجزى كل نفس بما كسبت. إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه، متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله، إنه حميد مجيد. وقال بعض الحكماء: الأيام سهام والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه، ويخترمك بلياليه وأيامه، حتى يستغرق جميع أجزائه. فكيف بقاء سلامتك، مع وقوع الأيام بك، وسرعة الليالي في بدنك لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص، لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت ممر الساعات بك. ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها، وإنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم. وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتي به من العجائب، أكثر مما يحيط به الواعظ، اللهم أرشدنا إلى الصواب.

وقال بعض الحكماء: وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال: الدنيا وقتك الذي يرجع إليك فيه طرفك، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأت فلا علم به. والدهر يومٌ مقبل تنعاه ليلته، وتطويه ساعاته، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان والدهر موكل بتشتيت الجماعات، وانخرام الشمل، وتنقل الدول. والأمل

طويـل، والعمـر قصير، وإلى الله تصير الأمور. وخطب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: يـا أيها النـاس، إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكـم هلكـى. إنما خلقتـم للأبد ولكنكم مـن دار إلى دار تُنقلون عبـاد الله، إنكم في دار لكـم فيها مـن طعامكم غصـص، ومن شرابكـم شرق، لا تصفو لكم نعمـة تسرون بها إلا بفـراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائـرون إليه، وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

وقـال عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في خطبته، أوصيكم بتقـوى الله، والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم، وأنتم تريدون تجديدها. فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر، سلكوا طريقًا وكأنهم قد قطعوه، وأفضوا إلى عَلَمٍ فكأنهم بلغوه. وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية، وكم عسـى أن يبقى من له يوم في الدنيا وطالب حثيـث يطلبه حتـى يفارقها. فلا تجزعوا لبؤسـها وضرائها فإنه إلى انقطـاع، ولا تفرحوا بمتاعهـا ونعمائهـا فإنـه إلى زوال. عجبـت لطالب الدنيـا والموت يطلبـه، وغافل وليس بمغفول عنه.

وقال محمد بن الحسين: لما عَلِم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أهان الدنيا، وأنه لم يرضها لأوليائه، وأنها عنده حقيرة قليلة، وأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زهـد فيها، وحـذر أصحابه من فتنتها، أكلوا منها قصدًا، وقدمـوا فضلًا وأخذوا منها ما يكفي، وتركوا ما يُلهى. لبسـوا من الثياب ما ستر العورة، وأكلوا من الطعام أدناه مماسد الجوعـة، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية، وإلى الآخرة أنها باقية، فتزودوا من الدنيا كزاد الراكـب فخربوا الدنيا، وعمروا بها الآخرة. ونظـروا إلى الآخرة بقلوبهم، إذ علموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم، فارتحلوا إليها بقلوبهم، لمّا علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم. تعبـوا قليـلًا، وتنعمـوا طويـلًا. كل ذلك بتوفيـق مولاهـم الكريم، أحبوا مـا أحب لهم وكرهوا ما كره لهم.

بيان صفة الدنيا بالأمثلة:

اعلم أن الدنيا سريعة الفناء، قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء، ثم تخلف في الوفاء. تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيرًا عنيفًا، ومرتحلة ارتحالًا سريعًا. ولكن الناظر إليها قد لا يحس برحكتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضاءها.

ومثالها الظل، فإنه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة، ساكن في الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنشد وقال:

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب يتمثل كثيرًا ويقول:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغترارًا بظل زائل حمق

وقيل إن هذا من قوله.

ويقال أن أعرابيًا نزل بقوم، فقدموا إليه طعامًا، فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك، فاقتلعوا الخيمة، فأصابته الشمس، فانتبه فقام وهو يقول:

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولابد يومًا أن ظلك زائل

وكذلك قيل:

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

مثال آخر للدنيا، من حيث التغرير بخيالاتها، ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها تشبه خيالات المنام، وأضغاث الأحلام. قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا حُلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون**» [قلتُ: قال القاري: لا أصل له] وقال يونس بن عبيد: ما شبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام، فرأى في منامه ما يكره وما يحب. فبينما هو كذلك إذا انتبه فكذلك الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس بايديهم شيء مما ركنوا إليه، وفرحوا به.

obeikandl.com

وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أشبه بالدنيا، قال: أحلام النائم.

مثال آخر للدنيا، في عداوتها لأهلها، وإهلاكها لبنيها.

اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولًا، والتوصل إلى الإهلاك آخرًا. وهي كامرأة تتزين للخطاب، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم. وقد روي أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كوشف بالدنيا، فرآها في صورة عجوز هتماء، عليها من كل زينة، فقال لها كم تزوجت قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت. فقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بؤسًا لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين! كيف تُهليكنهم واحدًا بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر!

مثال آخر للدنيا، في مخالفة ظاهرها لباطنها.

اعلم أن الدنيا مزينة الظاهر، قبيحة السرائر. وهي شبه عجوز متزينة، تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها، تمثل لهم قبائحها، فندموا على اتباعها، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها. وقال العلاء بن زياد: رأيت في المنام عجوزًا كبيرة، متعصبة الجلد، عليها من كل زينة الدنيا، والناس عكوف عليها معجبون، ينظرون إليها فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها، وإقبالهم عليها. فقلت لها ويلك من أنت؟ قال: أو ما تعرفني؟ قلت لا أدري من أنت، قال: أنا الدنيا. قلت: أعوذ بالله من شرك. قال: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم. وقال أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزًا مشوهة شمطاء، تصفق بيديها، وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون. فلما كانت بحذائي، أقبلت عليّ فقالت: لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء. ثم بكى أبو بكر وقال: رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد. وقال الفضيل بن عياض: قال ابن عباس: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية، مشوه خلقها فتشرف على الخلائق، فيقال لهم : أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تناحرتم

عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم. ثم يقذف بها في جهنم، فتنادي أي رب، أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها. وقال الفضيل: بلغني أن رجلًا عرج بروحه، فإذا امرأة على قارعة الطريق، عليها من كل زينة من الحلي والثياب، وإذا لا يمر بها أحدًا إلا جرحته فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس عجوزًا شمطاء، زرقاء عمشاء. قال: فقلت أعوذ بالله منك. قالت: لا والله، لا يعيذك الله مني حتى تبغض الدرهم. قال: فقلت من أنت؟ قال: أنا الدنيا.

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها.

اعلم أن الأحوال ثلاثة، حالة لم تكن فيها شيئًا،وهي ما قبل وجودك إلى أول الخلق. وحالة لا تكون فيها مشاهدًا للدنيا، وهي ما بعد موتك إلى الأبد. وحالة متوسطة بين ذلك، وهي أيام حياتك في الدنيا. فانظر إلى مقدار طولها، وانسبه إلى طرفي أول الخلق، حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير، في سفر بعيد. ولذلك قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مالي وللدنيا وإنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكبٍ سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها**» [رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني] ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه، في ضر وضيق، أو في سعة ورفاهية.

ورأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض الصحابة يبنى بيتًا من جص، فقال: أرى الأمر أعجل من هذا [رواه أبو داود والترمذي وحسنه الألباني].

وإلى هذا أشار عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وهو مثال واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة واللحد هو الميل الآخر. وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة

obeikandl.com

واحـدة وهو غافل عنهـا. وكيفما كان فلابد له مـن العبور. والبناء عـلى القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة، وأنت عابر عليها، غاية الجهل والخذلان.

مثال آخر للدنيا في لين موردها، وخشونة مصدرها.

اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة، يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها، وهيهات. فإن الخوض في الدنيا سـهل، والخروج منها مع السلامة شديد. وقد كتب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلى سلمان الفارسي بمثالها فقال: مثل الدنيا مثل الحية، لين مسها، ويقتل سـمها. فأعرض عما يعجبك منها لقلة مـا يصحبك منها. وضع عنك همومها، بما أيقنـت مـن فراقها وكن أسرَّ ما تكـون فيها، أحذر ما تكون لها فـإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام.

مثال آخر للدنيا، في تعذر الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها.

قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما مثل صاحب الدنيا كالماشي في الماء هل يستطيع الـذي يمـشي في المـاء أن لا تبتل قدماه**» [مرسـل عن الحسـن] وهذا يعرفـك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم، وقلوبهم منها مطهرة، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة، وذلك مكيدة من الشيطان. بل لو أخرجوا مما هم فيه، لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها. فكما أن المشي على الماء يقتضي بللًا لا محالة يلتصق بالقدم، فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب. بل علاقة الدنيا تمنع حلاوة العبادة. قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: بحق أقول لكم، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيـا، لا يلتذ بالعبـادة، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حـب الدنيا. وبحق أقول لكم، إن الدابـة إذا لم تركـب وتمتهن، تصعب ويتغير خلقها. كذلـك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت، ونصب العبادة، تقسو وتغلظ. وبحق أقول لكم، إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل. كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، أو يدنسها الطمع أو يقسـيها النعيم، فسـوف تكون أوعية للحكمة. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما بقي من**

الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله» [رواه ابن ماجه وصححه الألباني].

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك.

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا، ازداد عطشًا حتى يقتله.

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها، ولنضارة أوائلها، وخبث عواقبها.

اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيذة، كشهوات الأطعمة في المعدة. وسيجد العبد عند الموت. لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح، ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها. وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعمًا، وأكثر دسمًا، وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتنًا، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى، فنتنها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشد. بل هي في الدنيا مشاهدة. فإن من نُهبت داره وأُخذ أهله وماله وولده، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد، بقدر لذته به، وحبه له. وحرصه عليه. فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ، فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا. وقال أبي بن كعب: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الدنيا ضربت مثلًا لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من بن آدم وإن قزَّحه وملَّحه إلى ما يصير**» [رواه الطبراني وابن حبان وصححه الألباني] وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلًا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلًا وإن قزحه وملحه**» وقال الحسن: قد رأيتهم يطيبونه بالأفاويه والطيب، ثم يرمون به حيث رأيتم. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عَبَسَ: ٢٤]، قال ابن عباس: إلى رجيعه. وقال رجل لابن عمر: إني أريد أن أسألك وأستحي. قال: فلا تستحي واسأل. قال: إذا قضى أحدنا حاجته، فقام ينظر إلى ذلك منه. قال: نعم، إن المَلَك يقول له انظر إلى ما بخلت به،

انظر إلى ماذا صار. وكان بشر بن كعب يقول: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة، فيقول: انظروا إلى ثمارهم، ودجاجهم، وعسلهم، وسمنهم.

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ فلينظر أحدكم بم يرجع إليه**» [رواه مسلم].

مثال آخر للدنيا وأهلها، في اشتغالهم بنعيم الدنيا، وغفلتهم عن الآخرة. وخسرانهم العظيم بسببها.

اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم، مثل قوم ركبوا سفينة، فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة، وحذرهم المقام، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة، فصادف المكان خاليًا فأخذ أوسع الأماكن، وألينها، وأوفقها لمراده. وبعضهم توقف في الجزيرة، ينظر إلى أنوارها، وأزهارها العجيبة، وغياضها الملتفة، ونغمات طيورها الطيبة، وألحانها الموزونة الغريبة، وصار يلحظ من بريتها أحجارها، وحواجرها، ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر، العجيبة النقوش، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها، وعجائب صورها ثم تنبه لخطر فوات السفينة، فرجع إليها، فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا حرجًا، فاستقر فيه.

وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار، وأعجبه حسنها، ولم تسمح نفسه بإهمالها، فاستصحب منها جملة، فلم يجد في السفينة إلا مكانًا ضيقًا، وزاده ما حمله من الحجارة ضيقًا. وصار ثقيلًا عليه ووبالًا، فندم على أخذه، ولم يقدر على رميه، ولم يجد مكانًا لوضعه فحمله في السفينة على عنقه، وهو متأسف على أخذه، وليس ينفعه التأسف.

وبعضهم تولج الغياض، ونسى المركب، وبعد في متخرجه ومتنزهه منه، حتى لم يبلغه نداء الملاح، لاشتغاله بأكل تلك الثمار، واستشمام تلك الأنوار، والتفرج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع، وغير خال من السقطات والنكبات ولا منفكٍ عن شوك ينشب بثيابه، وغصن يجرح بدنه، وشوكة تدخل في رجله وصوت هائل يفزع منه، وعوسج يقطع ثيابه، ويهتك عورته، ويمنعه عن الانصراف لو أراده فلما بلغه نداء أهل السفينة، انصرف مثقلًا بما معه ولم يجد في المركب موضعًا، فبقي في الشط حتى مات جوعًا، وبعضهم لم يبلغه النداء، وصارت السفينة، فمنهم من افترست السباع ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم من نهشته الحيات، فتفرقوا كالجيف المنتنة وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار، فقد استرقته، وشغله الحزن بحفظها، والخوف من فوتها وقدضيقت عليه مكانه، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار، وكمدت تلك الألوان والأحجار، فظهر نتن رائحتها، فصارت مع كونها مضيقةعليه، مؤذية له بنتنها ووحشتها، فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هربًا منها. وقد أثر فيه ما أكل منها. فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح، فبلغ سقيمًا مدبرًا.ومن رجع قريبًا، ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، ومن رجع أولًا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالمًا.

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم. وما أقبح بمن يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض، وهي الذهب والفضة، وهشيم النبت وهي زينة الدنيا، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت، بل يصير كلًا ووبالًا عليه، وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه. وهذه حال الخلق كلهم، إلا من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ.

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم.

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة ولا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حُلةٍ تقطر رأسه فقالوا هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب فلما انتهى إليهم قال يا هؤلاء فقالوا يا هذا فقال علام أنتم؟ فقالوا على ما ترى فقال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا لا نعصيك شيئًا قال عهودكم ومواثيكم بالله فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئًا قال فأوردهم ماء رواءً ورياضًا خضرًا فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء قالوا: يا هذا قال: الرحيل قالوا إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أنّا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة وهم أقلهم ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيكم بالله أن لا تعصوه شيئًا وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل**» [رواه أحمد والبزار وحسنه العراقي].

مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا، ثم تفجعهم على فراقها.

اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا، مثل رجل هيأ دارًا وزينها، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قومًا واحدًا بعد واحد. فدخل واحد داره، فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين، ليشمه ويتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه فجهل رسمه. وظن أنه قد وهب ذلك منه، فتعلق به قلبه لما ظن أنه له. فلما استرجع منه ضجر وتفجع. ومن كان عالمًا برسمه، انتفع به وشكره، ورده بطيب قلب وانشراح صدر.

وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا، علم أنها دار ضيافة، سُبِّلت على المجتازين لا على المقيمين، ليتزودوا منها، وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم، حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها.

فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها، نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه.

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد:

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك، ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي، وما الذي ينبغي أن يجتنب منها، وما الذي لا يجتنب. فلابد وأن نبين الدنيا المذمومة، المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي فنقول: دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمى دنيا، وهو كل ما قبل الموت. والمتراخي المتأخر يسمى آخرة، وهو ما بعد الموت. فكل مالك فيه حظ، ونصيب، وغرض، وشهوة، ولذة، عاجل الحال قبل الوفاة. فهي الدنيا في حقك إلا أن جميع مالك إليه ميل، وفيه نصيب وحظ، فليس بمذموم، بل هو ثلاثة أقسام.

القسم الأول- ما يصحبك في الآخرة، وتبقى معك ثمرته بعد الموت، وهو شيئان، العلم، والعمل فقط. وأعني بالعلم العلم بالله، وصفاته، وأفعاله، وملائكته، وكتبه ورسله، وملكوت أرضه وسمائه، والعلم بشريعة نبيه. وأعني بالعمل، العبادة الخالصة لوجه الله تعالى. وقد يأنس العالم بالعلم، حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده، فيهجر النوم، والمطعم. والمنكح في لذته، لأنه أشهى عنده من جميع ذلك. فقد صار حظًا عاجلًا في الدنيا، ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة، لم نعد هذا من الدنيا أصلًا، بل قلنا إنه من الآخرة.

وكذلك العابد، قد يأنس بعبادته فيستلذها، بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه، حتى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين

قيام الليل. وكان آخر يقول: اللهم ارزقني قوة الصلاة، والركوع، والسجود في القبر. فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظ العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه، من حيث الاشتقاق من الدنو، ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك.

وقد قال ﷺ: «**حُبب إليَّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة**» فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا. وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة، وهو من الدنيا والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع، والسجود، وإنما يكون في الدنيا، فلذلك أضافها إلى الدنيا، إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة، فنقول هذه ليست من الدنيا. [قلت: اللفظ الصحيح: حبب إليّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة، إذ الصلاة ليست من الدنيا].

القسم الثاني- وهو المقابل له على الطرف الأقصى، كل ما فيه حظ عاجل، ولا ثمرة له في الآخرة أصلًا، كالتلذذ بالمعاصي كلها، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، والغلمان، والجواري، والخيول، والمواشي، والقصور، والدور، ورفيع الثياب، ولذائذ الأطعمة. فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة. وفيما يعد فضولًا، أو في محل الحاجة، نظر طويل، إذ روي عن عمر رضي الله عنه، أنه استعمل أبا الدرداء على حمص، فاتخذ كنيفًا أنفق عليه درهمين، فكتب إليه عمر: من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر، قد كان لك في بناء فارس والروم، ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها، فإذا أتاك كتابي هذا، فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك. فلم يزل بها حتى مات. فهذا رآه فضولًا من الدنيا فتأمل فيه [قلت: في الصحيح عن عائشة أنه مامات رسول الله حتى اتخذوا الكنف في بيوتهم].

القسم الثالث- وهو متوسط بين الطرفين: وهو كل حظ في العاجل، معين على أعمال الآخرة. كقدر القوت من الطعام، والقميص الواحد، وكل ما لابد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة، التي بها يتوصل إلى العلم والعمل. وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول، لأنه معين على القسم الأول، ووسيلة إليه فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل، لم يكن به متناولًا للدنيا، ولم يصربه من أبناء الدنيا. وإن كان باعثه الحظ العاجل، دون الاستعانة على التقوي، التحق بالقسم الثاني، وصار من جملة الدنيا.

ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات، صفاء القلب، أعني طهارته عن الأدناس وأنسه بذكر الله تعالى، وحبه لله عَزَّوَجَلَّ. وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا. والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى، والمواظبة عليه، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة. ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر. وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت. أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا، فهي من المنجيات إذ تكون جُنّه بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الأخبار: «أن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه» الحديث [رواه أحمد وقال العراقي: إسناده صحيح].

وأما الأنس والحب فهما من المسعدات، وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة؛ وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت، إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة، فيصير القبر روضة من رياض الجنة. وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة، ولم يكن له إلا محبوب واحد، وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره، ومطالعة جماله فارتفعت العوائق، وأفلت من السجن، وخُلِّي بينه وبين محبوبه، فقدم عليه مسرورًا سليمًا من الموانع، آمنًا من العوائق، وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبًا،

ولم يكن له محبوب إلا الدنيا، وقد غُصِب منه، وحيل بينه وبينه، وسُدَّت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه.

وليس الموت عدمًا إنما هو فراق لمحاب الدنيا، وقدوم على الله تعالى. فإذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث، وهي الذكر، والفكر، والعمل الذي يفطمه عن شهوات الدنيا، ويبغض إليه ملاذها، ويقطعه عنها. وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن. وصحة البدن لا تنال إلا بقوت، وملبس، ومسكن، ويحتاج كل واحد إلى أسباب. فالقدر الذي لابد منه من هذه الثلاثة، إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة، لم يكن من أبناء الدنيا، وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة. وإن أخذ ذلك لحظ النفس، وعلى قصد التنعم، صار من أبناء الدنيا، والراغبين في حظوظها. إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة، ويسمى ذلك حرامًا، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا، ويعرضه لطول الحساب، ويسمى ذلك حلالًا. والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضًا نوع عذاب، فمن نوقش الحساب عُذِّب [متفقٌ عليه] إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب، لكان ما يفوت من الدرجات العلى في الجنة، وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها، هو أيضًا عذاب. وقس به حالك في الدنيا، إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية، كيف يتقطع قلبك عليها حسرات، مع علمك بأنها سعادات منصرمة لا بقاء لها، ومنغصة بكدورات لا صفاء لها. فما حالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها، وتتقطع الدهور دون غايتها.

فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر، أو بالنظر إلى خضرة، أو شربة ماء بارد، فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه. وهو المعني بقوله ﷺ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**هذا من النعيم الذي تسأل عنه**» أشار به إلى الماء البارد والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف، وخطر، ومشقة، وانتظار. وكل ذلك من نقصان الحظ.

فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها، ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا. وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن، كان حذره من نعيم الدنيا أشد. حتى أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وضع رأسه على حجر لما نام، ثم رماه، إذ تمثل له إبليس وقال: رغبت في الدنيا. وحتى أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في ملكه، كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة، وهو يأكل خبز الشعير، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانًا وشدة، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة، مع القدرة عليها ووجودها أشد. ولهذا رُوي أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يطوى أيامًا، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع. ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، كلٌّ ذلك نظرًا لهم، وامتنانًا عليهم، ليتوفر من الآخرة حظهم. كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه، ويُلزمه ألم الفصد والحجامة، شفقة عليه، وحبًا له، لا بخلًا عليه. وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا.

فإن قلت فما الذي هو لله؟

فأقول الأشياء ثلاثة أقسام، منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات، وأنواع التنعمات في المباحات، وهي الدنيا المحضة المذمومة، فهي الدنيا صورةً ومعنىً.

ومنها ما صورته لله، ويمكن أن يجعل لغير الله، وهي ثلاثة، الفكر، والذكر، والكف عن الشهوات. فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرًا، ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر، فهي لله؛ وليست من الدنيا. وإن كان الغرض من الفكر، طلب العلم للتشرف به، وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن. أو الاشتهار بالزهد فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى، وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى. ومنها ما صورته لحظ النفس، ويمكن أن يكون معناه لله. وذلك كالأكل، والنكاح، وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده. فإن كان القصد حظ

النفس، فهو من الدنيا. وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى، فهو لله بمعناه، وإن كانت صورته صورة الدنيا.

فإذًا الدنيا حظ لنفسك العاجل، الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبر عنه بالهوى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]، ومجامع الهوى خمسة أمور، وهي ما جمعه الله تعالى في قوله: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة، يجمعها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤]، فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا. وقدر ضرورة القوت، وما لابد منه من مسكن وملبس، هو لله إن قصد به وجه الله. والاستكثار منه تنعم، وهو لغير الله. وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة، ولها طرفان وواسطة. طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر، فإن الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن. وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه، وينبغي أن يُحذر منه. وبينهما وسائط متشابهة، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. والحزم في الحذر والتقوى، والتقرب من حد الضرورة ما أمكن اقتداءً بالأنبياء والأولياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إذ كانوا يردُّون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى أن أويسًا القرني، كان يظن أهله أنه مجنون، لشدة تضييقه على نفسه، فبنوا له بيتًا على باب دارهم، فكان يأتي عليهم السنة، والسنتان، والثلاث، لا يرون له وجهًا. وكان يخرج أول الأذان، ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة. وكان طعامه أن يلتقط النوى، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره، وإن لم يصب ما يفوته من الحشف باع النوى، واشترى بثمنه ما يقوته. وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية، فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض،ثم يلبسها. فكان ذلك لباسه. وكان ربما مر به الصبيان، فيرمونه ويظنون أنه مجنون، فيقول لهم: يا إخوتاه، إن كنتم ولابد أن ترموني، فارموني بأحجار

صغار، فإني أخاف أن تدموا عقبى، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء. فهكذا كانت سيرته.

ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أيها الناس، من كان منكم من العراق فليقم. قال: فقاموا. فقال: اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة. فجلسوا. فقال: اجلسوا إلا من كان من مراد. فجلسوا. فقال: اجلسوا إلا من كان من قرن. فجلسوا كلهم إلا رجلًا واحدًا. فقال له عمر: أقرني أنت؟ فقال: نعم. فقال: أتعرف أويس بن عامر القرني؟ فوصفه له، فقال: نعم، وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين! والله ما فينا أحمق منه، ولا أجن منه، ولا أوحش منه، ولا أدنى منه. فبكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم قال: ما قلتُ ما قلتُ إلا لأني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر.

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا. وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا، ومن سيرة أبناء الأنبياء والأولياء، أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء، وأقلته الغبراء، إلا ما كان لله عَزَّوَجَلَّ من ذلك. وضد الدنيا الآخر، وهو كل ما أريد به الله تعالى، مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا، لأجل قوة طاعة الله، وذلك ليس من الدنيا. ويتبين هذا بمثال. وهو أن الحاج إذا حلف أنه في طريق الحج، لا يشتغل بغير الحج، بل يتجرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد، وعلف الجمل وخرز الراوية، وكل ما لابد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولًا بغير الحج. فكذلك البدن مركب النفس، تقطع به مسافة العمر، فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل، هو من الآخرة لا من الدنيا، نعم إذا قصد مجرد تلذذ البدن، وتنعمه بشيء من هذه الأسباب، كان منحرفًا عن الآخرة، ويخشى على قلبه القسوة. قال الطنافسي: كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاويا فسمعت في الليلة الثامنة مناديًا وأنا بين اليقظة والنوم، ألا من

أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه. فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك، فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى.

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم:

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للإنسان فيها حظ، وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها، وليس كذلك.

أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها، فهي الأرض وما عليها. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، فالأرض فراش للآدمين، ومهاد ومسكن، ومستقر، وما عليها لهم ملبس، ومطعم، ومشرب، ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن، والنبات، والحيوان. أما النبات، فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوى. وأما المعادن، فيطلبها للآلات والأواني، كالنحاس والرصاص، وللنقد كالذهب والفضة، ولغير ذلك من المقاصد. وأما الحيوان، فينقسم إلى الإنسان، والبهائم، أما البهائم، فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمراكب والزينة، وأما الإنسان فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان، أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان. ويطلب قلوب الناس ليملكها، بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام له وهو الذي يعبر عنه بالجاه، إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين. فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا، وقد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ وهذا من الإنس ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وهي البهائم والحيوانات ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وهو النبات والزرع.

فهـذه هـي أعيان الدنيـا، إلا أن لها مع العبد علاقتين، علاقة مـع القلب، وهو حبه لهـا وحظه منها، وانصراف همـه إليها حتى يصير قلبه كالعبد، أو المحب المسـتهتر بالدنيا ويدخـل في هـذه العلاقة جميع صفات القلـب المعلقة بالدنيا، كالكبر، والغل، والحسـد، والرياء، والسـمعة وسـوء الظن، والمداهنة، وحب الثناء، وحب التكاثر والتفاخر،وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها، العلاقة الثانية مع البدن، وهو اشـتغاله بإصلاح هذه الأعيان، لتصلح لحظوظه وحظوظ غـيره، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشـغلون بها. والخلق إنما نسـوا أنفسهم، ومآبهم، ومنقلبهم بالدنيا، لهاتين العلاقتين، علاقة القلب بالحب، وعلاقة البدن بالشـغل. ولو عرف نفسه، وعرف ربـه، وعـرف حكمة الدنيا وسرها، علـم أن هذه الأعيان التي سـميناها دنيا، لم تخلق إلا لعلـف الدابـة التي يسـير بها إلى الله تعالى. أعنـي بالدابة البدن. فإنـه لا يبقى إلا بمطعم، ومـشرب، وملبـس، ومسـكن. كـما لا يبقـى الجمـل في طريـق الحـج إلا بعلـف، وماء، وجلال.

ومثال العبد في الدنيا في نسـيانه نفسـه ومقصده، مثال الحـاج الذي يقف في منازل الطريـق، ولا يزال يعلف الناقة، ويتعهدها، وينظفها، ويكسـوها ألـوان الثياب، ويحمل إليها أنواع الحشيش، ويبرد لها الماء بالثلج، حتى تفوته القافلة، وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة، وعن بقائه في البادية فريسـة للسـباع هو وناقته. والحاج البصير لا يهمه من أمـر الجمـل إلا القـدر الذي يقوى به على المـشي، فيتعهده وقلبه إلى الكعبـة والحج. وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة فكذلك البصير في السعي للآخرة، لا يشتغل بتعهد البدن إلّا بالـضرورة، كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة. ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبـين إخراجه من البطـن، في أن كل واحد منهما ضرورة البدن، ومَنْ همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها، وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن. فإن القوت ضروري وأمر المسـكن والملبس أهون. ولو عرفوا سـبب الحاجة إلى هذه الأمور، واقتصروا عليه

لم تستغرقهم أشغال الدنيا، وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها، وحظوظها منها. ولكنهم جهلوا وغفلوا، وتتابعت أشغال الدنيا عليهم، واتصل بعضها ببعض، وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فتاهوا في كثرة الأشغال، ونسوا مقاصدها.

فأشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، جرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم، ومقصودهم، ومنقلبهم، ومآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا، خيالات فاسدة، فانقسمت مذاهبهم، واختلفت آراؤهم على عدة أوجه. فطائفة غلبهم الجهل والغفلة، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم، فقالوا المقصود أن نعيش أيامًا في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا، ثم يكسبون ليأكلوا. وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين، ومن ليس له تنعم في الدنيا، ولا قدم في الدين. فإنه يتعب نهارًا ليأكل ليلًا، ويأكل ليلًا ليتعب نهارًا وذلك كبير السواني، فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت. وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا لأمر، وأنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا، بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا، وهي شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم، وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان، وجمع لذائذ الأطعمة. يأكلون كما تأكل الأنعام، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة. فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر. وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال، والاستغناء بكثرة الكنوز فأسهروا ليلهم، وأتعبوا نهارهم في الجمع، فهم يتبعون في الأسفار طول الليل والنهار، ويترددون في الأعمال الشاقة، ويكتسبون ويجمعون، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة، شحًا وبخلًا عليها أن تنقص، وهذه لذتهم، وفي ذلك دأبهم وحركتهم، إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات، فيكون للجامع تعبه ووباله، وللآكل لذته. ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون. وطائفة

ظنوا أن السعادة في حسن الاسم، وانطلاق الألسنة بالثناء، والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش، ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة، والدواب النفيسة. ويزخرفون أبواب الدور، وما يقع عليها أبصار الناس، حتى يقال إنه غني، وإنه ذو ثروة، ويظنون أن ذلك هي السعادة فهمتهم في نهارهم وليلهم، في تعهد موقع نظر الناس. وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس، وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى طاعة بطلب الولايات، وتقلد الأعمال السلطانية، لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم، وانقادت لهم رعاياهم، فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله، وعن عبادته، وعن التفكر في آخرتهم ومعادهم.

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها، تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل. وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة، والقدر الذي يكفي منها، وانجرَّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخراها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاو لم يمكنهم الرُّقي منها.

فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال، وعرف غاية المقصود منها، فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل، إلا وهو عالم بمقصوده، وعالم بحظه ونصيبه منه، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك. وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه، وفرغ القلب، وغلب عليه ذكر الآخرة، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له. وإن تعدى به قدر الضرورة، كثرت الأشغال، وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية. فتتشعب به الهموم. ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا، فلا يبالى الله في أي واد أهلكه منها. فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا.

وتنبه لذلك طائفة، فأعرضوا عن الدنيا، فحسدهم الشيطان، ولم يتركهم، وأضلهم في الإعراض أيضًا، حتى انقسموا إلى طوائف، فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها، سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم، للخلاص من محنة الدنيا، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند، فهم يتهجمون على النار، ويقتلون أنفسم بالإحراق، ويظنون أن هذا خلاص لهم من محن الدنيا.

وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص، بل لابد أولًا من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب. ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة، وبعضهم فسد عقله وجن، وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية، فظن أن ما كلفه الشرع محال، وأن الشرع تلبيس لا أصل له، فوقع في الإلحاد. وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد، لا ينقصه عصيان عاص، ولا تزيده عبادة متعبد. فعادوا إلى الشهوات، وسلكوا مسلك الإباحة، وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد، وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعى والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوام الخلق. ووراء هذا مذاهب باطلة، وضلالات هائلة، يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة. وإنما الناجي منها فرقة واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية. أما الدنيا، فيأخذ منها قدر الزاد. وأما الشهوات، فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة. بل يتبع العدل، ولا يترك

كل شيء ولا يطلب كل شيء من الدنيا. بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا، ويحفظه على حد مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن، أقبل على الله تعالى بكنه همته، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازمًا لسياسة الشهوات، ومراقبًا لها، في حدود الورع والتقوى. ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا ذكر الفرق التي ستنقسم إليها الأمة وقال: «**الناجي منها واحدة**» قالوا يا رسول الله. ومن هم؟ قال: «**أهل السنة والجماعة**» فقيل ومن أهل السنة والجماعة؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**» [قد صحّ بلفظ: هم الجماعة] وقد كانوا على النهج القصد، وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل. فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين. وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية. وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط. بل كان أمرهم بين ذلك قوامًا. وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى كما سبق ذكره في مواضع، والله أعلم.

تم كتاب ذم الدنيا، والحمد لله أولًا وآخرًا،

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

obeikandl.com